



الكرسي الرسولي

عظة قداسة البابا فرنسيس

خلال قدّاس أحد الشعانين

الأحد، 5 أبريل / نيسان 2020

بازليك القديس بطرس

[Multimedia]

"تَجَرَّدَ [يسوع] مِنْ ذَاتِهِ مَتَّخِذًا صُورَةَ الْعَبْدِ وَصَارَ عَلَى مِثَالِ الْبَشَرِ" (فل 2، 7). لتكون كلمات بولس الرسول هذه مدخلًا لنا في أسبوع الآلام، حيث تتردّد في القراءات، مثل لازمة، أن يسوع هو الذي يخدم: فهو الخادم الذي يغسل أقدام التلاميذ يوم خميس الأسرار. وهو العبد المتألم والمتنصر يوم الجمعة العظيمة (را. أش 52، 13)؛ ويقول فيه أشعيا في قراءة الغد: "هُوَ ذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْصَدُهُ" (أش 42، 1). خلّصنا الله بأن صار خادمًا لنا. نظنّ عادةً أننا نحن الخدام وعبيد لله. كلّ، بل هو الذي صار لنا خادمًا مجّانًا، لأنه هو الذي أحبّنا أولًا. من الصعب أن نحبّ دون أن نكون محبوبين. ومن الأصعب أيضًا أن نخدم إن لم نقبل أن يخدمنا الله أولًا.

ولكن - سؤال - كيف خدمنا الربّ؟ بذل حياته من أجلنا. أحبّنا ودفع الثمن الغالي عنا. شهدت القديسة أنجيلا من فولينيو أنها سمعت يسوع يقول هذه الكلمات: "لم أحبّك على سبيل المزاح". إذ قاده حبّه إلى أن يبذل نفسه من أجلنا، وحمل كلّ خطايانا على عاتقه. إنه لأمر مذهل للغاية: لقد خلّصنا الله راضيًا بأن يسحقه شرّنا. ولم يردّ بكلمة، إنما بالتواضع فقط والصبر وطاعة العبد، وقوة المحبة لا غير. وقد عضد الآب خدمة يسوع: لم يقهر الشرّ الذي وقع عليه، بل عضده في معاناته، كي يتغلّب على شرّنا بالخير وحده، وكي يمسح تمامًا شرّنا بالمحبة. يمسحه بالتمام.

صار الله عبدًا لنا حتى إنه عاش أكثر الأوضاع إيلاّمًا من أجل من يحبّ: *الخيانة والتخلّي*.

الخيانة. عانى يسوع من خيانة التلميذ الذي باعه والتلميذ الذي أنكره. خانه الأشخاص الذين هتفوا له هوشعنا ثم صاحوا: "لِيُصَلِّبْ!" (متى 27، 22). خاتته السلطات الدينية التي حكمت عليه ظلمًا والسلطات السياسية التي غسلت يديها. لنفكر في الخيانات الصغيرة أو الكبيرة التي عانينا منها في حياتنا. إنه لأمر فظيع عندما يتيسّر لنا أننا وضعنا ثقتنا في شخص ما ثم خاننا. فتشأ في عمق قلبنا خيبة أمل كبيرة وتبدو الحياة معها وكأنها قد فقدت معناها. يحدث هذا لأننا وُلدنا كي نُحِبّ ونُحَبّ، وأكثر الأمور ألمًا هو أن يخوننا مَنْ وعدنا بأن يكون مخلصًا لنا وقرينًا لنا. لا يمكننا حتى أن نتخيّل كم كان الأمر مؤلمًا لله الذي هو محبة.

لننظر في داخلنا. إن كنّا صادقين مع أنفسنا، فسوف نرى خياناتنا. كم من الأكاذيب والنفاق والازدواجية! كم من النوايا الحسنة التي خانّاها! وكم من الوعود التي لم نفِ بها! وكم من القرارات التي لم ننفّذها! يعرف الله قلبنا أفضل منّا، فهو يعرف مدى ضعفنا وعدم ثباتنا، وعدد سقطاتنا، وكم يصعب علينا النهوض، ومدى صعوبة شفاء بعض الجروح فينا.

وماذا فعل كي يساعدنا ويخدمنا؟ إنه يقول على فم النبي: "أشفيهم من ارتدادهم وأحيهم بسخاء" (هو 14، 5). شفانا آخذًا على عاتقه عدم أمانتنا، ومأخيا خياناتنا. وهكذا نحن، بدل أن نحبط خوفًا من عجزنا، بإمكاننا أن نرفع نظرنا نحو الصليب فنعانقه ونقول: "هذه هي خيانتى، لقد تحملتها أنت يا يسوع. إنك تفتح ذراعيك لى، تحبنى فتخدمنى، وتستمر فى مساندتى... لذلك سأتابع سيرى!".

التخلّى. فى إنجيل اليوم، يقول يسوع، وهو على الصليب، جملة واحدة فقط: "إلهى، إلهى، لماذا تركتني؟" (متى 27، 46). إنها عبارة مؤثرة. لقد تألم يسوع من تخلّى تلاميذه الذين تركوه وهربوا. لكن بقي له الآب. والآب، من هاوية التخلّى والوحدة، ولأول مرة يدعو أباه باسمه العام "الله". ويصرخ بصوت عالٍ "لماذا؟"، "لماذا؟"، السؤال الممزق: "لماذا تخلّيت عني أنت أيضًا؟". إنها فى الواقع كلمات المزمور (را. 22، 2): تخبرنا أن يسوع حملفى صلاته أيضًا أشدّ الأوضاع صعوبة. نعم، عرف الشدة، واختبر التخلّى الأكبر، الذي تشهد له الأناجيل وتكرر كلماته الأصلية: إيلي إيلي لّما شبقتانى؟

لماذا كلّ هذا؟ مرة أخرى، كلّ هذا من أجلنا، من أجل أن يخدمنا. حتى إذا ما شعرنا بالكلال، ووجدنا أنفسنا فى طريق مسدود، لا نور فيه ولا مخرج له، عندما يبدو أن الله أيضًا لا يستجيب، نتذكّر أننا لسنا بمفردنا. لقد اختبر يسوع التخلّى التام، وهو الوضع الأكثر غرابة بالنسبة له، حتى يكون متضامنًا معنا فى كلّ شيء. لقد اختبره من أجلى ومن أجلك، ومن أجل الجميع، لقد اختبره كي يقول لنا: "لا تخف، لست وحدك. لقد اختبرت كلّ الأوضاع الصعبة كي أكون دائمًا بجانبك". إلى هذا الحدّ خدمنا يسوع، انحدر إلى أحلك هاوية معاناتنا، حتى الخيانة والتخلّى. واليوم، فى مأساة الجائحة، وإزاء الكثير من الضمانات التى تنهار، وإزاء الكثير من التطلّعات التى تسقط، وإزاء الإحساس بالتخلّى الذي تضيق به قلوبنا، يقول يسوع لكلّ واحد منّا: "تشجّع: افتح قلبك لمحبتى، وسوف تشعر بعزاء الله الذي يعضدك".

أيها الإخوة والأخوات الأعزّاء، ماذا يمكننا أن نفعل أمام الله الذي خدمنا إلى حدّ أنه اختبر الخيانة والتخلّى؟ يمكننا ألا نخون ما خلّقنا من أجله، وألا نتخلّى عمّا هو مهم. نحن فى العالم كي نحب الله ونحب الآخرين. كلّ شيء يزول، وهذا يبقى. تدفعنا المأساة التى نمرّ بها فى هذا الوقت إلى أن نأخذ على محمل الجدّ ما هو جدّى، وألا نضيع فى أشياء تافهة؛ وأن نكتشف من جديده لا فائدة أن نحيا دون أن نخدم. لأنّ الحياة تُقاس بالمحبة. لذا فلنقف، فى هذه الأيام المقدّسة، فى المنزل، أمام الصليب—أنظروا إلى الصليب!— إنه مقياس محبة الله لنا. أمام الله الذي خدمنا إلى حدّ أنه بذل حياته من أجلنا، لنطلب، ونحن ناظرين للمصلوب، هذه النعمة: أن نعيش كي نخدم. لنحاول الاتّصال بمن يعانى، بمن هو وحيد ومحتاج. يجب ألا أن نفكر فقط فى الأمور التى نفتقد لها، بل حتى فى الخير الذي يمكننا أن نصنعه.

هؤذا عبديّ الذي أعضده. الآب، الذي عضد يسوع فى الآلام، يشجّعنا نحن أيضًا فى الخدمة. المحبة، والصلاة، والمغفرة، والعناية بالآخرين، فى الأسرة كما فى المجتمع، كلّ هذا قد يكون بالطبع مكلفًا. وقد يبدو وكأنه درب الصليب. لكن درب الخدمة هو درب الانتصار الذي منحنا الخلاص والذي أنقذ حياتنا. أودّ أن أقول هذا بشكل خاص إلى الشباب، فى هذا اليوم المخصّص لهم منذ خمسة وثلاثين عامًا. أيها الأصدقاء الأعزّاء، انظروا إلى الأبطال الحقيقيين الذين ظهروا فى هذه الأيام: ليسوا من ذوي الشهرة والمال والنجاح، إنما هم الذين يبذلون ذواتهم فى خدمة الآخرين. اشعّروا بأنكم مدعوون للمخاطرة بحياتكم. لا تخافوا أن تبدلوا من أجل الله والآخرين، فسوف تريحونها! لأنّ الحياة هى هبة نتأهلها بقدر ما نعطيها. ولأنّ أعظم فرح هو أن نقول نعم للمحبة، بدون شرط أو قيد. لنقل نعم للمحبة، بدون شرط أو قيد. كما فعل يسوع من أجلنا.

©Copyright - Libreria Editrice Vaticana